

التوحيد والنفس البشرية

أخى :

إن المراد منا أصلاً وفرعاً توحيد الله وتربيته والإيمان به سبحانه وتعالى رباً قادراً سمياً بصيراً عليمًا خبيراً مُحْيِياً مُمِيتاً فعلاً لما يريد . نوحده سبحانه لأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد . ولما كان بلوغ هذا المقام من الإيمان أمراً لا يتيسر لمخلوق فقد شرع الله الأسباب ، وبين الطريق ، ووضح السبيل الموصل . المبلغ ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ .

وقد علمت أخى أن الطريق إلى الله واحد لا يتعدد . ولذلك يتعذر سلوكه لندرته وعزته حيث الإنسان أمامه طرق وسبل . فالله هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . والإنسان عبارة عن نسخة من هذا الكون المتعدد . ولذلك فحياته لا تخلو من الشرك ولا يتجاوزه غباره وأواره : فهي بمقتضى طبيعته من شرك إلى شرك . ومن كفر إلى كفر . ولكن ربك الغفور ذو الرحمة يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ولا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

وقد علمت أخى أن حركات الإنسان كلها وسكناته جميعها مزيجة بالشرك خليطة بالكفر لما يتصف به من الأنانية البشرية ، ولما يدعيه ويتصف ويتظاهر به من صفات القدرة والافتدار والعلم والاستقلال . ولما كان هذا شأن الإنسان وطبيعته التى لا مفر منها فقد رسم الله له طريق الخلاص من هذه الدعاوى ، وألزمه السير على هذا الطريق والانتظام عليه باذلاً أقصى جهده فى المحافظة على آداب السلوك لما يعلم سبحانه من أن غفلة لحظة من الوقت ترد السالك إلى طبيعته البشرية فيتقحم من جديد فى أوحال العُجب والغرور وما إلى

ذلك من معاني الكفر والشرك . ولما كان الاستمرار على نهج الصراط المستقيم والمداومة على الاحتفاظ بآداب السلوك أمراً لا يحتمله الإنسان ولا يطيقه فقد اتصف الله تعالى بالمغفرة والرحمة ، وبالتجاوز عن السقطات والزلات التي تقع من السالك على غير إصرار وعناد فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ومن هنا نعلم أن الإنسان مهما أوتى من قوة ، ومهما بلغ من الاستعداد . ومهما بذل من جهد فإنه معرض للسقطات والزلات التي لها صفة الإشراف ولها معنى الكفر والضلال . فإن تاب ورجع إلى الله عفا عنه وغفر له ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ الآية .

ولما كان الإنسان بمقتضى طبيعته مُعَرَّضاً للشرك حتى في إيمانه بربه وطاعته له وعبادته إياه قال تعالى - يلفت الأنظار ويوجه القلوب إلى الحقيقة التي لا مفر منها وإلى معنى التوحيد الكامل لله تبارك وتعالى - : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فالخطاب موجه إلى المؤمنين جميعاً . إلى كل مؤمن بالله مهما بلغ من درجات الإيمان لأن الصفة البشرية ملازمة للإنسان ملازمة الظل للعود . فالنفس بمقتضى تسوية الله لها ملهمة فجورها وتقراها . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

وقد علمت أخى أن التوبة تزكية للنفس في حال المعصية وفي حال الطاعة - تُزَكِّي في حالة المعصية بالطاعة وفي حالة الطاعة بشهود المنة لله تبارك وتعالى وشكره عز وجل على التوفيق والهداية ، وبالتجرد من حولها وقوتها إلى حول الله وقوته .

إخواني :

المؤمن الحق يتوب إلى الله من الطاعات كما يتوب إليه من المعاصي لأن مصدر الطاعة هو مصدر المعصية ألا وهي النفس . ولذلك يفر إلى ربه تائباً مستغفراً أواباً منياً ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ .

وقد علمت أخى أن من شد الرحال إليه سبحانه فإنه لا يركن إلى نفسه

لحظة من الوقت لما لها من صفات الادعاء والشرك فوالله الذى لا إله إلا هو . إن النفس إذا وجدت ثغراً ومنفذاً كسَمَّ الخياط ضيقاً خرجت به إلى عالم الشرك والكفر ، ولذلك إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه ليستديم فقره له وافتقاره إليه . وإن هذا الابتلاء ألوان وأنواع يختلف باختلاف الدرجات والمقامات . ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلِيهِ قُرْبَكُمْ أَغْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .

وقد علمت أخى أن ما يتوب منه النبى غير ما يتوب منه الصديق . وما يتوب منه الصديق غير ما يتوب منه الولى . وما يتوب منه الولى غير ما يتوب منه الصالح . وما يتوب منه الصالح غير ما يتوب منه المؤمن العادى . ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَتُؤْتِيهِمْ أَعمالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴾ . حسنات الأبرار سيئات المقرين .

أخى :

إن الله تبارك وتعالى خلق الجن والإنس ليعرفوه وليكونوا عباداً له . وخلق السموات والأرض وما فيهن للاستدلال عليه والتعرف إليه . وبعث الرسل وأنزل الكتب للدعوة إليه وبيان الحق من الباطل : والمقصود بكل هذا توحيده سبحانه فى ربوبيته وتوحيده فى ألوهيته . ولكن الإنسان رغم كل هذا حريص على تريب نفسه وعبادة هواه . ولعلم الله سبحانه بهذا خلق الجنة والنار ترغيباً وترهيباً . ولكن الإنسان هو هو فى كفره بربه ، وشركه بخالقه . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ولما كان الأمر كذلك فالمؤمن بالله يجمع شمله كله ، ويحصر همه جميعه فى معاداة نفسه ومحاربتها بكل الوسائل المعروفة ، والتكاليف المفروضة . وعلى قدر إيمانه يكون جهاده ونضاله ، وعلى قدر علمه بربه يكون علمه بنفسه ؛ فإنه كلما ازداد علماً بالله ازداد علماً بنفسه التى بين جنبيه ، وازداد شعوراً وإحساساً بمدى استعدادها للكفر والشرك . ولذلك لا يخضع لرغباتها ، ولا يسلم لأمرها . ولا يركن إلى هواجسها وخواطرها مهما تظاهرت بالصفاء ، وتلونت بصفات العبودية لله . أعاذنا الله وإياكم من شرورها وأضرارها وسيئات أعمالها . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * * *